الأسس الفلسفية للبحث السلوكي في الجغرافيا

ريجينالد ج. غوليدج

ترجمة بتصرف
أ.د. مضر خليل عمر

> لعلّ الكثير من الالتباس الكامن في صميم الجغرافيا اليوم ناتج عن إدراك وجود العديد من الجغرافيات والعوالم المحتملة . ينشأ عدم اليقين لأننا لا نعرف أيّ جغرافية نختار، ولا أيّ واقع محتمل ينبغي أن نسعى إليه . نخاطر بأن نصبح متعصبين بمحاولة فرض جميع العوالم في صيغة واحدة محدودة للغاية ، وبذلك نتجاهل العوالم الأخرى أو نقلل من شأنها أو ننسها. (غوليدج، ١٩٨١: ٢١)

مقدمة

يُعدّ البحث السلوكي في الجغرافيا (لم يُعجبني مصطلح "السلوكية" قط ، لأنه يؤدي إلى تصنيف غير مدروس) أحد أقل مجالات هذا التخصص فهمًا وأكثرها سوء تمثيل . كان التحريف الأكثر شيوعًا (الذي نتج جزئيًا عن رغبة محمومة في تصنيف هذا العمل بـ"إزم" آخر) هو الخلط بين "السلوكية" المتطرفة لسكينر وبافلوف ورفاقهما والبحث "السلوكي" القائم على أعمال تولمان (1948)، وليوين (1951) ، وبياجيه (1950)، وبياجيه وإنهيلدر (1967)، وغيرهم ، الذين أكدوا على البحث القائم على الإدراك والمعرفي.

السمات المميزة للبحث السلوكي على عكس الاهتمام الجغرافي بآثار الحركة والخصائص الفيزيائية (مثل المسافة ، وتكرار الحركة ، وحجمها) للأشخاص أثناء قيامهم بالأنشطة اليومية (مثل التسوق ، والترفيه ، والذهاب إلى العمل ، وتغيير مكان الإقامة ، والهجرة) ، أبدى الجغرافيون السلوكيون اهتمامًا بالبحث عن تفسيرات عملية لأسباب اتخاذ إجراءات مكانية محددة . ومن السمات المميزة الأولى للبحث السلوكي ، إذًا ، **تركيزه على العملية بدلًا من الشكل** (جيل وأولسون، 1979) . فبدلًا من دراسة شكل أو نمط السلوك المكاني ، تم تحويل التركيز إلى دراسة الخصائص المكانية للعمليات السلوكية مثل الإدراك ، والتعلم ، وتكوين المواقف ، والحفظ ، والتذكر ، واستخدام التفكير المكاني ، والاستدلال لتفسير الاختلافات في الأفعال والأنشطة البشرية في بيئات بيئية مختلفة . ولكن لم تكن هناك مجموعات بيانات للرجوع إليها واستخدامها في هذه المساعي . بل كان لا بد من جمع البيانات الأولية عن طريق المسح ، أو المقابلة ، أو الملاحظة ، أو التذكر .

يمكن أن تكون هذه البيانات كمية أو نوعية (ينظر الجزء 3) ، مما تطلب من الجغرافيين السلوكيين تجاوز العروض الأولية للثورة الكمية ونماذجها المعيارية وتحليلها الإحصائي البارامتري القائم على السكان ، ليشمل أيضًا القياس أحادي البعد ومتعدد الأبعاد ، والتجميع الهرمي ، وتحليل التباين ، والتحليل الاستكشافي بشكل عام . تطلب هذا استعارة تقنيات من تخصصات أخرى أو تعديل التقنيات الحالية لاستخدامها في المجال المكاني . وكإضافة ضرورية ، حفزت الحاجة إلى تقييم النتائج التي تم الحصول عليها من المناهج الجديدة البحث عن نظريات جديدة . ونماذج لم تتطلب عقلانية اقتصادية ومكانية أو افتراضات أزالت التباين البيئي والشخصي من مساحة المشكلة . وأخيرًا ، ركز الباحثون السلوكيون على الأفراد أكثر من تركيزهم على المجموعات أو السكان ، وقد ابتعد هذا البحث المُجزأ بشكل ملحوظ عن التحليل التجميعي النموذجي للبيانات الثانوية (مثل التعدادات السكانية) الذي ميّز الكثير من الأبحاث الأخرى في الجغرافيا البشرية (وخاصة البحوث الاقتصادية والحضرية).

وقد أثرت نظريات المعرفة ، مثل الحتمية البيئية ، والطبيعية ، والتجريبية / الوضعية، والعقلانية ، والمعاملاتية ، والبنائية التفاعلية ، والظاهراتية ، وما بعد الحداثة ، على البحث السلوكي في أوقات مختلفة . على وجه الخصوص ، وصفتُ أنا وغاري مور (1976) كيف أثّرت أفكار كانط (1724-1804) الموجهة نحو الشكل على "الثورة" النظرية والكمية في ستينيات القرن العشرين ، وبالتالي على بعض المجالات الناشئة في البحث السلوكي . وأشرنا إلى أنه ، بناءً على وجهة النظر الكانطية ، كان من الصعب فصل عملية المعرفة عن المعرفة نفسها . وقد أثّر هذا الالتباس على تغيير تدريجي بين الجغرافيين البشريين عمومًا، الذين بدأوا بالتركيز على مناهج العملية في المنظورات الكانطية الجديدة ، والسلوكية المعرفية ، والظاهراتية . من الواضح أن الجغرافيا السلوكية نشأت استجابةً للحاجة إلى معرفة المزيد عن العلاقات بين الإنسان والبيئة ، مما يمكن الحصول عليه من تحليل البيانات الثانوية حول سمات السكان والفحص اللاحق للحركات البشرية .

في هذا الفصل ، أتناول أولاً كيفية تعامل الجغرافيين السلوكيين مع توسيع نطاق خطابهم ليشمل الواقع الموضوعي والذاتي . بعد ذلك ، أتبع خطًا زمنيًا ، موضحًا كيف تغير هذا المجال من الاهتمام مع ازدياد تأثير النظريات والمفاهيم المستمدة من الإدراك المكاني والإدراك المكاني ، ومع ازدياد قوة الرابط بين الجغرافيا السلوكية وعلم النفس المعرفي . الجغرافي السلوكي ينظر إلى طبيعة الواقع في ظل فلسفة تُركز على التفكير والسلوك البشري ، قد يفترض المرء أن ما يفصل بين عالم خارجي وكتلة من الكائنات الحسية التي تحاول فرض هيكل على الكتلة الفوضوية من الرسائل الحسية التي تُمطرها يوميًا ، هو انعكاساتنا الداخلية لهذا التدفق الخارجي . ما واجه باحثي السلوك هو اكتشاف طبيعة أي تشابهات بين تدفق الواقع الخارجي والحقائق المُشكَّلة في عقول الكائنات الحسية .

كان لا بد من إدراك أن تصوراتنا الخاصة ليست مُبتكرة بشكل مستقل ، كما لو كانت على لوح فارغ ، بل هي مُستمدة من المفاهيم المُتوارثة في اللغة والأدب والصورة والإيماءات والسلوك . وهكذا ، اقترحت النظرية ذات الصلة في ذلك الوقت أنه عندما نتحدث عن طفل يتعلم بيئة ما ، فإننا ندرك أن عملية التعلم مقيدة باللغة ، ربما بقدر ما هي مقيدة بالتجربة، وأن التفسيرات التقليدية إلى حد ما للتجربة والأشياء التي يسهل التعرف عليها تهيمن على ما يتم ترميزه وتخزينه في عمليات التعلم المبكرة . فالبالغ ، بعد أن تعلم اللغة وغيرها من أساليب معالجة المعلومات والتواصل ، يعيش ويتصرف في عالم من المفاهيم التي تتعلق بكل من الأشياء الحقيقية (التي يمكن إدراكها مباشرة) والمفاهيم المتخيلة أو الافتراضية التي يمكن تحديدها وفهمها (مثل مفهوم الخريطة المعرفية) .

توفر الإدراكات بيانات بديهية تُسهّل التفسير. وبالتالي ، يتكون الواقع بالنسبة للبالغ من السمات والأشياء والأحداث والسلوكيات المُختبرة والمُدركة والمُتذكرة التي تعرض لها الشخص أو التي اختبرها . أدرك الباحثون السلوكيون أنه للتعامل مع بيئة تتكون من واقع موضوعي ، يفترض المرء :

(1) أن كل فرد يضع نفسه والآخرين في عالم خارجي مشترك،

(2) أن عناصر هذا العالم الخارجي موجودة وستستمر في الوجود حتى بعد توقف تفاعل الشخص معها، و

(3) أن الأشياء في الواقع الخارجي ستستمر في الوجود كجزء من بيئة خارجية كلية مستقلة تمامًا عن الوعي البشري الخاص .

كما افترض الباحثون السلوكيون

(4) أن معرفة وجود الأماكن والسمات يمكن الاحتفاظ بها في الذاكرة حتى بعد توقف التفاعل وإبعاد الشخص جسديًا عن المكان الذي تم اختباره ، و

(5) أن الكائنات الحسية تعمل في بيئات موضوعية من خلال فصل أشياء هذه البيئات عن أفعالها (جوليدج، 1979: 110).

إن تبني مثل هذه المقدمات يُمثل بداية نهج يتجاوز التشييء ، ويفسر ، جزئيًا على الأقل ، قدرتنا المشتركة على تحديد طبيعة الواقع الموضوعي كما يظهر للبشر . كما أنه يُشكل أساسًا لمقدمات مفادها أنه بإمكاننا جمع معلومات حول هذه الحقائق وتمثيلها بطرق تسمح للعديد من الأشخاص المختلفين بفهم التمثيل ، والوصول إلى مستوى مشترك من الفهم لما تتكون منه البيئة ، والتواصل بشأن الأماكن والميزات والأشياء والأحداث . وهكذا ، افترض هذا التعمق في الحواس البشرية أن العوالم الموضوعية تُصبح "حقيقية" بالنسبة لنا عندما نضيف أشخاصًا إلى محيطها . اقترح لي (1973) أن الواقع هو أي شيء يُمكن إدراكه بالإدراك ، واستيعابه بالفكر والفهم . من هذا المنظور، تُعد التجارب حقيقية ، والمفاهيم حقيقية ، والحقائق حقيقية ، والواقع هو في جوهره التدفق المستمر للعمليات .

وقد مثّلت مهمة التغلب على حاجز "طبيعة الواقع" هذا مشكلة مفاهيمية كبيرة للعديد من الباحثين السلوكيين ، إذ تضمنت قبول عالم من الواقع الموضوعي والذاتي . وبسبب عدم قدرتهم على تبرير هذا الواقع بسبب صعوبة استعادته وتمثيله ، شعر بعض الباحثين بخيبة أمل من الفائدة المحتملة لهذا النهج ، وخلال سبعينيات القرن الماضي ، ابتعدوا عن البحث السلوكي . كان المطلوب في ذلك الوقت هو طريقة للتغلب على (أو على الأقل تجاوز) حاجز التفكير في العالم والعمل معه في العقل ، والعلاقات بين الإنسان والبيئة التي ساهمت في تكوينه . وقد استلزمت الحاجة إلى توفير قاعدة أكثر ثراءً لمواصلة البحث استكشاف نظريات وأساليب جديدة . كانت النتيجة تطوير ما أسميته "نظرة عملية للواقع" ، والتي تتطور إلى "فلسفة عملية للحياة اليومية" . في جوهرها ، تستند هذه النظرة إلى افتراضات مفادها أننا نطور المعرفة العلائقية للبيئة البشرية من خلال عملية تفاعلية أو تجريبية ، وأن سلوكياتنا تكشف كيف سدينا الفجوة بين المعلومات المشفرة والمخزنة في الذاكرة طويلة المدى ، وإحساسنا بالعالم من حولنا ، والحقائق الثابتة للواقع الموضوعي .

وقد بررت هذه الفلسفة العملية للحياة اليومية العديد من التوجهات البحثية الجديدة ، ووفرت أساسًا منطقيًا لاستكشاف العوالم الذاتية والموضوعية . على سبيل المثال، كتبت سوزان وبيري هانسون (1993) عملًا جذابًا حول "**جغرافية الحياة اليومية**" ، والذي ينبع من وجهة نظر مفادها أن المعرفة المكانية ، سواءً كانت ساذجة أو مُدرّسة ، تنبع من عمليات العيش والتفاعل . لقد وفرت الأساس لترشيد الاهتمام بالمشكلات غير التقليدية (مثل الاهتمامات المكانية لمختلف الفئات السكانية ذات الإعاقة) . كما وفرت طريقة مُرضية لفهم الأساس المنطقي وراء أنماط النشاط البشري اليومية ، أو الأسبوعية ، أو الشهرية ، أو السنوية ، أو حتى المتقطعة . سمحت فلسفة العملية هذه للباحثين بافتراض أن كل شيء حقيقي بمعنى أو بآخر، وأن المشكلة التي تواجه المرء هي إيجاد المعنى الصحيح الذي يصبح فيه شيء ما حقيقيًا . في جوهرها ، تشير هذه الفلسفة إلى أنه فقط من خلال فهم العمليات التي توجه التفكير، والاستدلال ، والتصرف ، يمكننا أن نفهم تمامًا الأنماط الجغرافية المكانية الموجودة في العلاقات البيئية البشرية .

يحمل هذا الأساس معه مجموعة أخرى من الافتراضات ، هذه المرة حول البشر. على سبيل المثال ، تفترض أن كل كائن لديه وسيلة لبناء واقع ما بطريقة تُسهّل الفهم . قد يشمل ذلك إدراك أنظمة العلاقات المكانية بين الأشياء ، وبين الناس ، وبين الناس والأشياء . لذا ، يحتاج كل كائن إلى فهم ذاته في علاقتها بالأشياء الخارجية والظروف التي توجد فيها هذه الأشياء (أي يجب الانتباه إلى الطريقة التي يرتبط بها عقلنا بالتدفق خارج حدوده أو يعكسه) . يجب أن يمتلك الناس عمومًا القدرة على تكوين فهم مكاني زماني متزامن يجمع بين العلاقات المادية والتفسير البشري لتلك العلاقات . في العقد الذي تلا هذا البحث عن الهوية ، اقترح

عالم النفس شول (1987) أن المعرفة المكانية تتكون من علاقات بين الذات والشيء ، وعلاقات بين الشيء والشيء ، وكلاهما ضروري للمعرفة البيئية . تسمح مفاهيم الذات والموضوع (الأنانية) للفرد بفهم موقعه في البيئة ، بغض النظر عن حجمها ، من خلال ربط الأشياء والخصائص البيئية بالذات بطريقة تشبه المتجه . تتسم علاقات الذات بالموضوع بالديناميكية، ويجب تحديثها مكانيًا بعد كل حركة مكانية أو حركة دوران . من ناحية أخرى ، تظل علاقات الأشياء بالأشياء مستقرة ، حتى بعد أن يُغير السلوك البشري علاقات الذات بالموضوع .

وقد هيمن هذا المنظور على التفكير والمنطق الجغرافي لعقود . هنا ، يُعامل الناس كأشياء ، تمامًا مثل السمات البيئية الأخرى ، ويُجمّعون ويُصنّفون حسب عوامل موضوعية مثل الموقع والعمر والجنس والمهنة والدخل . على سبيل المثال ، يظل الترتيب المكاني لمواقع الأشياء في المدن في الولايات المتحدة كما هو، بغض النظر عن مكان رصدها . تُشكل علاقات الأشياء بالأشياء أسس الفهم الجماعي ، وتتيح لنا طرح أسئلة والإجابة عليها مثل : "أين أنا؟" ، "أين أنت؟" ، "أين أنا بالنسبة لك؟" ، "أين نحن بالنسبة لأشياء أخرى في العالم؟" ، و"أين تقع الأشياء في العالم؟" .

تقليديًا ، كانت دراسة علاقات الأشياء بالأشياء جزءًا مهمًا من الجغرافيا البشرية والفيزيائية . ولكن اتضح للباحثين السلوكيين أنه لا يتعين علينا فقط افتراض إمكانية تطوير الإنسان لهذا النوع من الفهم المكاني الموضوعي ، بل يتعين علينا أيضًا افتراض أن الانعكاسات الداخلية للتدفق الخارجي قد يكون لها بنية ومجموعة من القواسم المشتركة التي تختلف عن الواقع الموضوعي . وهذا بدوره يعني أن هياكل المعرفة المكانية المُستَدْخَلة يجب أن تتمتع بثبات في تصورها وإحساسها وإدراكها ، ودرجة معقولة من الاتساق من حيث المفاهيم التي يُنشئها العقل بحيث يُمكن إدراك عناصر التدفق الخارجي وتطويرها ضمن نظام معلومات / اتصالات مُخصَّص . وهكذا، بدأ الباحثون السلوكيون باتباع مسار يفترض أن الإدراك الواعي ينطوي على عملية اختيار من التجربة اللاواعية تلك العناصر التي يوجد فيها تكرار وتشابه . وهكذا ، تصبح المُدركات أكثر وضوحًا ودقة كلما أصبحت المفاهيم المعنية أكثر وضوحًا ودقة.

إضفاء الطابع الرسمي على المناهج السلوكية

مع مرور الوقت وبحلول أوائل سبعينيات القرن العشرين ، بدأ الباحثون السلوكيون بطرح أسئلة مُحيّرة – مثل "ما هو الواقع؟" و"ما هو الواقع ذو الصلة؟" . بالنسبة لبعض الخبراء ، بدا أن الواقع هو ببساطة ما يُدركه معظم الناس . بالنسبة لفلاسفة مثل برتراند راسل ، كان ذلك هو مجموع الحقائق الذرية في الكون . ويبدو أن الواقع ، كمجموعة من الحقائق الذرية ، يكمن وراء ما ناقشه فيتجنشتاين بـ "ما هي الحقيقة" . ومع اكتسابهم المزيد من المعرفة حول العلاقات بين الإنسان والبيئة ، بدأ الجغرافيون السلوكيون يرفضون هذه النظرة الذرية للواقع كونها الأساس الوحيد للمعرفة البيئية . كما بدأوا يشككون في أهمية العقلانية الاقتصادية والمكانية لوصف الحالات البشرية الحقيقية . وهكذا بدأ تحولهم من من النظرية المعيارية إلى الواقع الذاتي.

وقد سهّلت أطروحة سيمون حول "نماذج الإنسان" (1957) ، التي قدّمها وولبرت (1964) للجغرافيين ، هذه الخطوة . قدّم سيمون افتراضات واقعية حول عملية صنع القرار البشري وسلوك الاختيار ، سرعان ما أثبتت أنها أكثر واقعية من الافتراض البسيط للعقلانية الاقتصادية والمكانية ، الذي ساعد على إدخال نماذج معيارية قوية في هذا التخصص . في وقت مبكر من عام 1967، حدّد لوينثال ثلاثة مناهج تُجسّد ما عُرف لاحقًا بـ"بحوث الإدراك البيئي والسلوك" في هذا التخصص . كانت هذه المناهج :

(1) موضوع بحث قائم على مواقف الإنسان تجاه الأحداث البيئية المتطرفة (مثل المخاطر الطبيعية والتكنولوجية)،
(2) دراسة الخصائص المكانية لجماليات المظاهر الطبيعية والبيئات المُدرَكة (مثل دراسات أذواق المظاهر الطبيعية والحالات العاطفية الناتجة عن تجربة أماكن مختلفة)، و
(3) البحث في عملية صنع القرار المكاني وسلوك الاختيار.

نما أول هذه الأقسام (أبحاث المخاطر) بسرعة من خلال التركيز على طبيعة المخاطر وردود الفعل البشرية تجاهها (على سبيل المثال ، من حيث المواقف وتقييم المخاطر) . أما القسم الثاني ، فقد ارتبط بالجغرافيا الثقافية والتاريخية ، مؤكدًا على مفهوم "في السياق الزمني" كمفهوم حاسم للأوصاف البيئية . أما القسم الثالث ، فقد بدأ بالتركيز على العمليات المعرفية المتضمنة في اتخاذ القرارات المكانية وسلوك الاختيار . وبعد نشر أول مجموعة من الأوراق البحثية الموجهة سلوكيًا بقلم كيفن كوكس وأنا (1969)، والتي قدّم فيها ديفيد ستيا مفهوم الخرائط المعرفية للجغرافيا ، توسع الاهتمام بسرعة متجاوزًا ما كان يُعزى سابقًا إلى أعمال لينش (1960) حول صور المدينة وجولد (1966) حول أسطح تفضيل الفضاء.

على وجه الخصوص ، تأثر البحث المعرفي السلوكي بورقة روجر داونز (1970) حول الصور المعرفية لمراكز التسوق ، والتي أظهرت أن للواقع الذاتي أبعادًا قابلة للاستعادة ، تربط بين العالمين الذاتي والموضوعي ، ويمكن استخدامها للمساعدة في تفسير الأفعال المكانية . ومع ذلك ، فقد بقي بعض الإرث من أوائل الستينيات في الفلسفة الكامنة وراء هذا المجال البحثي . وللوصول إلى تفسيرات مقبولة ، كان لا بد من وضع الأشياء المُدرَكة وردود الفعل عليها في "الفئة الصحيحة" ، مما يُساعد على إضفاء الوضوح والنظام والصلاحية والموثوقية على التجارب الذاتية . ظاهريًا ، يبدو هذا تراجعًا نحو التشييء . ولكن ، من خلال فهم أن التصنيف عملية معرفية تُساعد على فرض النظام على ما قد يُعد أحيانًا فوضى ، فقد تحول هذا التراجع المُدرَك إلى قوة إيجابية فعّالة. أدى تبني هذا المنظور إلى تقبّل مفاهيم مفادها أن المعلومات يجب أن تُحوّل إلى معرفة قبل أن تُصبح مفيدة ، وأن المعرفة يجب أن تكون قابلة للتواصل وأن يكون لها أساس مشترك.

بمعنى آخر ، يجب أن ننتبه إلى الطريقة التي يرتبط بها عقلنا أو يتفاعل بها مع التدفق الخارج عن حدوده ، ويجب أن نجعل حواسنا تختار وتُرسل الرسائل ذات الصلة ليتم تخزينها في الذاكرة والتلاعب بها . وهكذا ، أقرّت وجهة النظر هذه بأن المعرفة تُخلق في العقل وتنتج عن تفاعل العقل مع الرسائل الصادرة من الكون الخارجي ، والتي تُصفّى من خلال الحواس البشرية . لذلك ، يجب أن تتكون معرفتنا ببيئة أو وضع معين من مختارات من كتلة الرسائل التي تُغرق حواس الشخص . فقط تلك التي تُعد ذات صلة شخصية من بين كتلة رسائل "لمن يهمه الأمر" تتجاوز الترشيح الحسي ، وتُشفّر ، وتستقر في الذاكرة طويلة المدى . المعاملاتية ، والبنائية التفاعلية ، والبحث المعرفي السلوكي نتيجةً للتعبير عن هذه المشاعر، يُعد أحد تيارات البحث (البحث المعرفي السلوكي) بدأ يُعرّف بالبحث السلوكي أكثر من الشقين الآخرين.

تفرّع بحث المخاطر إلى إطاره الخاص ، حتى أنه انفصل إلى حد ما إلى شطري المخاطر والمخاطر. اندمجت جغرافيا المظاهر الطبيعية تدريجيًا في جغرافيا ثقافية جديدة أصبحت أكثر اهتمامًا بالقيم والمعتقدات الإنسانية . وبينما يحتفظ كلا المجالين بعلاقة وطيدة مع النظرية السلوكية ، والأساليب ، والمفاهيم ، إلا أنهما يُعدان اليوم تخصصين منفصلين . افترض باحثو السلوك المعرفي أن العقل يُنظّم محتواه ويُنشئه في بنية غير معروفة بعد . كما افترضوا أن العقل يُعالج التجربة الحسية ويُخزّن المعلومات عبر أنشطة معالجة مثل "التفكير المكاني" و"الاستدلال المكاني" . ظهرت أمثلة خاصة على كيفية ممارسة البحث في أوائل سبعينيات القرن الماضي في كتاب مؤثر للغاية بعنوان "الصورة والبيئة" ، حرره روجر داونز وديفيد ستيا (1973). سرعان

ما أصبح هذا الكتاب مرجعًا أساسيًا في البحث السلوكي المعرفي ، وكانت محتوياته مصدر إلهام لعقدين من البحث في السلوك المكاني .

تُعدّ نتائج التلاعب الداخلي بالبيانات المحسوسة والمشفرة مدخلات لاتخاذ القرار وسلوك الاختيار، وبالتالي ، تؤثر على الأفعال والأنشطة البشرية . إن قبول فكرة أن المعرفة ليست فورية أو فطرية يفترض أنها من صنع العقل ، وغالبًا ما تكون نتيجة للتجربة أثناء عملية التعلم . بدأت وجهة النظر البنائية التفاعلية في التأثير بشكل جدي على طرق تفكير الجغرافيين السلوكيين بعد أن نشرتُ أنا وغاري مور مجموعةً مُحررةً بعنوان "المعرفة البيئية" (1976) . في مقدمتنا لهذا المجلد ، اقترحنا أن يتبنى الباحثون السلوكيون منظورًا بنائيًا تفاعليًا لتوجيه تفكيرهم وأنشطة استدلالهم . تُقرّ هذه النظرة البنائية التفاعلية بأنه بينما قد يعيش الجميع في العالم الخارجي نفسه ، قد ينظر إليه الناس كمجموعة من الحقائق المختلفة ، وبالتالي ، نظرًا لاختلاف أنماط التفاعل بين البشر والبيئة ، لا يمكن لشخصين بناء واقعهما بالطريقة نفسها تمامًا.

هذا لا يعني أننا جميعًا نعيش في حقائق فريدة فقط ، إذ ما يزال يتعين علينا التواصل والتفاعل للبقاء . وهذا يتطلب قاعدة من نوع ما من البنية المشتركة . **لطالما كان تحديد ما هو مشترك وما هو خاص في الحقائق الشخصية جوهر النهج السلوكي المعرفي في الجغرافيا** . قام الباحثون بفحص الحقائق المُصممة بشكل مختلف للعثور على ما هو مشترك ، وثابت ، وقابل للتواصل ، ولتحديد ما هو خاص ، ومرتبط بالواقع الفردي ، وقابل للتواصل مع الآخرين ، وذلك بعد شرح مُفصل لقاعدة البناء . بعد طرح هذه الأطروحة في مقدمة مشتركة لكتاب "المعرفة البيئية" ، جادلتُ أنا وغاري مور بأنه من البديهي أن مثل هذا الموقف يتعارض مع التشييء المحض ، والعلموية المتطرفة ، وغيرها من الحجج الوهمية التي استُخدمت لنقد البحوث السلوكية.

ما يزال الناس يخلطون بين السلوكية السكينرية المتطرفة القائمة على التحفيز والاستجابة ، والتكييف الإجرائي ، وتعديل السلوك ، وبين النهج السلوكي المعرفي أو الإدراكي لخلق المعرفة المكانية . حاولتُ أنا وهيلين كوكليس (1983) تصحيح هذه المفاهيم الخاطئة من خلال تفصيل كيفية اختلاف الجغرافيا السلوكية عن نظريات تعديل السلوك ، ولكن حتى يومنا هذا ما يزال هناك بعض الالتباس المتبقي في النصوص التي تبحث في تاريخ الفكر الجغرافي . كان جزء من أطروحتنا هو أن وجهة النظر **"الوضعية"** (أو التجريبية العلمية) التي تؤكد على الحاجة إلى اكتشاف معرفي حثيث قائم على استخدام المنهج العلمي لإنتاج بيانات موثوقة وصحيحة يمكن أن تكون أيضًا نهجًا إنسانيًا ، بل كانت جزءًا مهمًا من العلوم الإنسانية التي أُدمج فيها البحث السلوكي المعرفي.

في الفصل الثاني ، قدم كيتشن لمحة عامة عن الوضعية . في جوهرها ، هذه فلسفة علمية وتجريبية تؤكد على التجريب والتحليل التجريبي كوسيلةٍ لإنتاج نتائج صحيحة وموثوقة . ينخرط الوضعيون في العلوم الفيزيائية والطبيعية والحيوية والإنسانية . الفلسفة الوضعية التي تُشكل أساس الكثير من الجغرافيا السلوكية ليست البحث التجريبي القائم على التفاعل بين المثير والاستجابة ، أو النهج والتجنب ، أو الاستجابة المشروطة ، أو تعديل السلوك ، وهو النوع الشائع في بعض مجالات البحث النفسي (خاصةً على الحيوانات) . هذا سوء فهم شائع من قِبل كُتّاب طبيعة الجغرافيا الذين لا يستكشفون بدقة الأشكال المختلفة للبحث التجريبي . أكد الباحثون في الجغرافيا السلوكية على العمليات المعرفية والإدراكية ونظريات التعلم المختلفة كأساسٍ لعلمهم وتجريبهم ، وليس على نماذج الاستجابة للمثير التي غالبًا ما تُربط بها.

لا تُؤخذ التجارب على البشر باستخفاف أو إهمال . لطالما خضع هذا النوع من الأبحاث للتدقيق من قِبل لجان وطنية ومحلية تُجري دراسات على البشر، حيث تُقيّم ما إذا كان مشروع مُعين سيُعرّض المشارك للخطر، سواءً على المستوى الشخصي أو الاجتماعي أو الطبي أو النفسي أو حتى الاقتصادي . وتُفرض

العديد من الضوابط والتقييمات والقيود على الباحث السلوكي قبل أي تفاعل يتضمن جمع البيانات مع المشاركين . وهذا يضمن حماية المشاركين ومعاملتهم بإنسانية ولباقة ، مع إيلاء اهتمام كبير لسلامتهم . وتُعدّ عوامل مثل الملل والإرهاق الذهني و/أو البدني والسلامة أمورًا ذات أهمية إشرافية . وقليلٌ من هذه الأمور يُدركها أو يُقرّ بها ، خاصةً من قِبل مُفكّري الجغرافيا النقديين الذين لم يُصمّموا أو يُنفّذوا مثل هذه التجارب . بسبب هذا النوع من الرصد ، شهد البحث السلوكي المعرفي تطورًا مستمرًا من قاعدة "صلبة" يهيمن عليها البحث التجريبي عبر جمع البيانات التجريبية والمعالجة الكمية ، إلى قاعدة تتضمن جمع البيانات "الصلبة" و"الناعمة" واستخدام إجراءات وأساليب تحليل تجريبية كمية أو نوعية . وكما سنرى لاحقًا ، كانت النتيجة توسع البحث السلوكي ليشمل العديد من المجالات الجديدة.

كيف مكّنت الفلسفة من ممارسة البحث السلوكي

تطلب التركيز على البيانات الشخصية المتعلقة بالمعرفة والتصورات والأفعال تطوير تصاميم تجريبية لجمع البيانات المختبرية والميدانية . ولا عجب أن الأساليب العلمية والفلسفة الإيجابية كانتا بارزتين . ورغم أنهما ما تزالان أساسيتين في الكثير من البحث السلوكي المعرفي ، إلا أن الحاجة إلى مراقبة وفحص مشاعر الناس ومعتقداتهم ، بالإضافة إلى ردود أفعالهم تجاه مواقف المهام المنظمة ، استلزمت توسيع الأسس المعرفية وتصميم عمليات جمع البيانات . كان من بين هذه الأسس النظرية التفاعلية والبنائية التفاعلية . أقرت هذه النظرية بالطبيعة الديناميكية للعلاقات بين الإنسان والبيئة ، وأن معظم السلوكيات في حالة تغير مستمر وقد تتغير مع تغير البيئات أو مع مرور الوقت . كما أقرت بأن التجربة هي مفتاح اكتساب المعرفة المكانية ، ووجهت الانتباه بعيدًا عن التجربة الساكنة والمستعرضة إلى السلوك الموجود في المكان والزمان.

ركزت البنائية التفاعلية أيضًا على الطبيعة الديناميكية للعلاقات بين الإنسان والبيئة ، لكنها أكدت على أن الناس يعيشون ويتفاعلون في واقع مُصنَّع . كان لدور الإدراك والمعرفة أهمية بالغة في فهم أسباب قيام الناس بالأفعال والأنشطة المختارة . أثارت القاعدة البنائية التفاعلية والتفاعلية للتفكير في السلوك المكاني تساؤلات حول كيفية تراكم المعرفة المكانية ، وكيفية حدوث التعلم المكاني، وكيف يؤثر العمر أو الجنس أو العرق أو الثقافة أو العضوية في المجموعات الاجتماعية والاقتصادية على المعاملات بين الإنسان والبيئة، وكيف تؤثر على التنمية و فهم المفاهيم والبنى المكانية. وقد قاد السعي وراء إجابات لهذه الأسئلة الجغرافيين السلوكيين إلى رحلة بحثية حثيثة . وقد شملت هذه الجهود مجالات سلوك المستهلك ، وأسواق الإسكان ، والأنشطة الترفيهية والسياحية ، والنمذجة السلوكية المفصلة للأنشطة البشرية ، وبيئات الأطفال ، والمخاطر، وردود الفعل العاطفية تجاه البيئات ، والشخصيات البيئية ، وإرشاد البشر ، والأفلام ، والمخاطر، وغيرها الكثير.

ومع كل رحلة إلى مجال جديد ، كانت التغييرات المنهجية ضرورية لتناسب نوع المعاملات التي يتم دراستها . ومع استكشاف هذه المجالات ، توسعت الموارد المنهجية للباحث السلوكي . فعلى الصعيد التحليلي الكمي ، شملت الإجراءات التمثيلية والتحليلية الجديدة أمورًا مثل نماذج العمليات الحسابية للمحاكاة الحاسوبية لحركة الأسر؛ والنماذج اللوجستية لاختيار وسيلة النقل للتنقل في المناطق الحضرية ؛ والتجارب المعملية لتوضيح القدرات المكانية . من الناحية التحليلية النوعية ، شملت المناهج الجديدة استخدام مجموعات التركيز لتوضيح المعرفة والمواقف والآراء ؛ واستطلاعات الرأي غير الاحتمالية ، مثل المقابلات الشخصية ، وأخذ العينات بنظام الحصص ، ودراسات الحالة ، والملاحظة التجريبية ؛ ولعب الألعاب الذي كشف عن الوعي المكاني الكامن لدى الأطفال ؛ وتصوير بيئات اللعب والنشاط للكشف عن العادات والممارسات التي قد لا تُكتشف لولا ذلك.

النظر إلى الحقائق البديلة

صوّرت الأبحاث التي تُراعي وجود واحتياجات فئات سكانية خاصة واقعًا مختلفًا تمامًا عن الواقع الذي يعيشه عامة السكان . على سبيل المثال ، قد يبني الأشخاص الذين يعانون من مشاكل عقلية واقعًا فريدًا من نوعه نظرًا لقدرتهم المحدودة على فهم المفاهيم والتصورات الجغرافية المكانية ثنائية وثلاثية الأبعاد قد يبني الأطفال المصابون بالتوحد واقعًا مختلفًا تمامًا عن تلك التي يعيشها الآخرون من حولهم ، بحيث يصبح التواصل صعبًا ، إن لم يكن مستحيلًا . يبدو أن الأشخاص ذوي النمو العقلي المحدود يخلقون واقعًا خطيًا للغاية . وبالمثل ، يمكن أن تكون حقائق بعض فئات الأشخاص ذوي الإعاقة (مثل ضعاف البصر) خطية للغاية ، وبالتالي ، تبدو مختلفة عن حقائق العديد من الأشخاص الأصحاء من حيث قلة معرفتهم بالخصائص البيئية ، وقلة وعيهم بالأماكن والمعالم البعيدة ، وقلة معرفتهم بعدد الطرق المعروفة .

بالنسبة للشخص المشرد ، قد يتقلص العالم إلى حي صالح للسكن . أما بالنسبة للأشخاص ذوي الإعاقة الذين يعيشون في دور جماعية ، فقد يحيط بهم حي عدائي مليء بمشاعر "لا في منزلي" ويقيد حركتهم المحلية . بالنسبة لشخص يستخدم كرسيًا متحركًا ، قد يكون الرصيف بدون قطع رصيف حاجزًا لا يمكن اجتيازه ويقيد التفاعلات . بالنسبة للشخص الأصحاء ، قد تكون هذه الميزة البيئية غير مهمة ، ولا تُمثل حتى في الذاكرة ، أو تُعد جزءًا من بناء "شارع" . إن الشخص الكفيف الذي يسير على رصيف مليء بأثاث الشوارع واللافتات المكتوبة يُنشئ واقعًا قد يكون ناقصًا ومُجزأً وخطيًا للغاية مقارنةً بواقع الشخص السليم، والذي قد يُشبه العالم المادي الموضوعي، باستخدام المعلومات المتاحة بسهولة من المصادر البصرية .

بناءً على هذا المنظور، من المنطقي افتراض أن بعض الفئات من ذوي الإعاقة لا تستطيع تجربة سوى أجزاء من البيئة نظرًا لوجود ما يُشكل لهم عوائق للسفر أو التجربة (على سبيل المثال ، قد لا يعرف الأشخاص المقيدين في السفر أبدًا ما يوجد في المربع التالي على يمينهم) . وبالتالي ، فإن المعلومات التي يتعرضون لها ليست سوى جزء بسيط من المعلومات التي يتعرض لها الشخص السليم . وبالتالي ، فإن هياكل الذاكرة الناتجة ، المتاحة للتلاعب الداخلي بالعقل ، تكون هزيلة ومحدودة مقارنةً بالمعلومات المتاحة للتلاعب بعقل الشخص السليم ، على الرغم من أن العمليات المعرفية المكافئة لـ التفكير والاستدلال متاحان لكلا المجموعتين . في الماضي ، فشل بعض النقاد في فهم هذا الاختلاف (جليسون، 1996؛ إمري، 1996). إن إدراك أن بعض المجموعات ، بسبب الإعاقة ، أو نقص التعليم ، أو نقص الخبرة ، أو نقص اللغة ، قد يكون لديها مجموعات ذاكرة ضعيفة ، دفع الجغرافيين السلوكيين إلى البحث عن أسئلة ملحة تتعلق بطبيعة الحقائق التي يبنيها أعضاء هذه المجموعات ، والاختلافات بينها ، وتأثيرات ضعف الذاكرة النسبي على التعامل مع البيئة.

حاجز المنهجية

تعثر تطوير المعرفة المفاهيمية المتعلقة بالبحث السلوكي المكاني في بعض الأحيان على حاجز المنهجية. على سبيل المثال ، استلزم إدخال مفهوم الخريطة المعرفية إجراء بحث مكثف حول منهجيات استعادة محتوى هذه الخرائط قبل أن يصبح المفهوم جزءًا لا يتجزأ من التفكير الجغرافي . وُجهت انتقادات للمحاولات المبكرة لاستخدام أساليب لينش (1960) في تجميع الخرائط التخطيطية لافتقارها إلى الهندسة المترية اللازمة للتفسير الخرائطي (أي افتقارها إلى المقياس وإطار مرجعي للتحقق من الاتجاه والتوجيه ، واعتمادها على المهارات الرسومية).

أثبتت منهجية "الخرائط الذهنية" التي استخدمها غولد (1966) أنها أسطح تفضيلات مُعلنة ناتجة عن تحليل أسطح الاتجاهات للتصنيفات الجماعية للأماكن ، وليست تجسيدات خارجية للذكريات المكانية المُخزنة . أظهر ديمكو وبريجز (1970) وجونستون (1972) الفرق بين هذه التقييمات "المُعلنة" (أي المثالية أو المُفضلة) والسلوكيات "المُعلنة" (أو الفعلية) في سياق التنبؤ بحركات الهجرة . بُحثت الحاجة إلى إيجاد أساليب مناسبة لإخراج المعلومات المخزنة في العقل من وجهات نظر متنوعة ، باستخدام الإحصاءات والرسوم البيانية والأوصاف اللفظية وبناء النماذج وإجراءات القياس المترية وغير المترية وهي إجراءات لُخصت في برنامج كيتشن(1996) .CMap وبينما كان الرسم والوصف إجراءات مباشرة لإخراج المعرفة المكانية وتمثيلها ، استعادت أساليب أخرى هياكل مكانية كامنة عبر أساليب غير مباشرة لاستعادة هذه "المنتجات المكانية".

هيمنت التجارب هذه المنهجيات على البحث السلوكي في سبعينيات القرن الماضي ومعظم ثمانينياته . وبينما انزعج بعض الباحثين المحتملين من هذا التركيز المنهجي ، إلا أنه كان ضروريًا لأنه مكّن من الوصول الموثوق والصحيح إلى المعلومات المكانية المخزنة في الذاكرة طويلة المدى ، ويسّر تمثيلها وتحليلها بطرق لم تكن ممكنة من قبل . إن تذليل الحواجز المنهجية من خلال بناء تصاميم وإجراءات تجريبية مناسبة مكّن من اتخاذ الخطوات الحاسمة التالية في البحث السلوكي.

ملخص

التجارب التي تتجاوز الحدود الحسية ، والتي ندركها لاحقًا ، تُشفّر وتُخزّن وتُستخدم في عمليات عقلية للمساعدة في عملية التفاعل مع البيئة اليومية والعيش فيها . وهكذا ، سعى الباحثون إلى إيجاد إجابات لأسئلة مثل : ما هي العلاقات القائمة بين الواقع الموضوعي والعالم المُشكّل داخل رؤوسنا ؟ كيف يُمكننا تحديد طبيعة العلاقة بين الإنسان في العالم والعالم داخله ؟ ما الذي يُؤثّر على ما إذا كانت رسالة صادرة عن عالم خارجي مُعقّد تُقبل كرسالة تستحق التخزين في الذاكرة طويلة المدى ؟ كيف يُمكننا تحديد ما يعرفه الناس عن العالم الذي يعيشون فيه ؟ كيف يُمكننا تمثيل ، وتحليل ، وتفسير العالم الموجود في أذهاننا ؟ هل نُجري تجارب مُصممة (مثل تلك الموجودة في علم النفس) لاكتشاف كيف نُفكّر وماذا نفكّر؟ حول؟ أم نتبع التقاليد الجغرافية من خلال ملاحظة الأفعال والأنشطة والسلوكيات الظاهرة ، واقتراح أسباب حدوثها؟ ما أفضل طريقة لتمثيل المعلومات التي تم الحصول عليها من الأفراد في نماذج بحيث يمكن للآخرين مقارنة بُنىهم الخاصة بها ؟ وما هي المساهمة التي تُقدم من خلال أداء هذه المهام في تراكم المعرفة الجغرافية؟

لقد طفت العديد من هذه الأسئلة على السطح في كتابات الجغرافيين السلوكيين في أوقات مختلفة على مدى الأربعين عامًا الماضية . إن حقيقة ظهورها مرارًا وتكرارًا تُظهر بعض الثبات في فلسفة التعلم والبحث ، وتشير إلى خطورة المشكلات الكامنة وراء هذه التأملات . وقد شملت الفلسفات التي شكلت في بعض الأحيان أساس البحث والتفكير السلوكي في الجغرافيا (وما تزال تشمل): التجريبية الكلاسيكية والأساليب العلمية للوضعية؛ وفلسفات العقل لمختلف المفكرين المعرفيين؛ أصحاب المذهب التفاعلي والبنائي التفاعلي؛ والواقعيون والعقلانيون والطبيعيون.

ساهم كلٌّ منهم في تحديد أسئلة البحث ، ومنهجياته ، وتفسيراته . ووفر كلٌّ منهم أساسًا لمناقشة طبيعة الواقع ، والتداخل بين الواقعين الذاتي والموضوعي ، ومشكلة العقل والجسد ، وطرق تفسير النتائج . لقد رأينا كيف ساهمت العقلانية والتجريبية في تطوير تيار المخاطر / المخاطر، وكيف ساهمت الواقعية والطبيعية في تطوير تيار جماليات المظاهر الطبيعية ، وكيف ساهمت المعاملاتية والبنائية التفاعلية والبنيوية في تحديد

التيار المعرفي السلوكي . وبشكل خاص ، ركز هذا التيار الأخير على العمليات المعرفية السلوكية ، وشجع على البحث عن البيانات الأولية ، وشجع على استخدام مجموعة واسعة من المنهجيات الكمية والنوعية ، والتصميمات التجريبية ، والإجراءات التحليلية والاستدلالية . لكن جوهر تجربة هذه الفلسفات المتنوعة يكمن في كيفية تفسير مفهوم الواقع .

أما النظريات المعرفية التي ، في رأيي ، قدمت أعظم الرؤى في تطوير المعرفة حول العلاقات بين الإنسان والبيئة ، فقد كانت النهج التفاعلي البنائي والنهج التفاعلي . يؤكد هذان النهجان على أهمية العقل في فهم الواقع الموضوعي ، كما يسمحان بمعالجات تتراوح بين التجارب المعملية المُتحكم بها مع أشخاص يقومون بمهام مُتحكم بها بدقة ، والتفسير النوعي للمعلومات المكتسبة ذاتيًا حول الأفعال والمعتقدات والعواطف المتعلقة ببيئات بيئية محددة أو عامة . إن وصف هذا التنوع الواسع من طرق التفكير والاستدلال بـ"مذهب" بسيط (مثل "السلوكية") لا يُنصف ثراء وتعقيد النهج السلوكي . في الواقع ، لا يوجد "نهج سلوكي" واحد، بل العديد . **هذا التنوع يجعل البحث السلوكي في الجغرافيا جذابًا ومثمرًا** . وبعد تجاوز مسألة تصنيف "أيهما" ، يمكن أن يصبح هذا التيار من التفكير والمنطق الجغرافي المكاني محورًا رئيسيًا في البحث المستقبلي عن المعرفة الجغرافية.